جولة في المجلات

مؤتمر اورشليم الاسلامي – النشر الجاهلي

مؤتمر اورشليم الاسلامي

كتب تيّاردا (F. Taillardat) في مجلة « آسية الفرنسوية » (*L'Asie Française*, Février 1932, p. 54-57) بحثاً ملخّصاً عن المؤتمر الاسلامي الذي عُقد في ٧ كانون الاول الفائت في القدس الشريف . فذكر اسباب فشله رادّاً اياها الى غاية المؤتمرين المزدوجة : اي البحث في اعادة الخلافة ، وانشاء جامعة اسلامية في القدس تقوم مقام الأزهر .

وقال ان هذه الغاية لم تُعرف حتى هاج الرأي العام الاسلامي على المؤتمرين ، شاكّاً في حسن نياتهم ، ناسباً اعمالهم الى ارضاء الاجانب والرغبة في تحويل العاصمة الاسلامية الى مدينة تحت الانتداب الانكليزي . ولم تكن حكومة من الحكومات الاسلامية المدعوّة الى المؤتمر كافغانستان ومصر واليمن والحجاز ونجد والعراق ، وغير المدعوّة كسائر حكومات الشرق الاسلامي لتنظر بعين الرضى الى انعقاد المؤتمر . وكان يعدّ المسلمين في نفوسهم عليه جرائد تركية وبلاد السوفيت خاصّة . وقد نشر الكاتب مقتطفات من هذه الصحف تظهر كلها مناكفة للمؤتمر ، دالّة على اصابع السياسة الاجنبية الرامية الى السيطرة على المسلمين بواسطة اعادة الخلافة . وختم مقاله قائلاً :

« لقد فشل المؤتمر . وان هو لم يصادف النجاح ايضاً في مسألة انشاء الجامعة ، فلأن هذا المشروع ظهر سياسياً قبل كل شيء . غايته نشر دعاية لم تكن لتعزّزها القاهرة ولا مكة ولا استامبول .

« وقد شعر العالم الاسلامي شعوراً غريزيّاً ان مشروع المفتي اذا نجح يرجع به الى الاسلام القديم . ففشل المؤتمر فشلاً تامّاً .

« ونحن اذا طرحنا من المؤتمرين الثانية والثانين مندوباً المجتمعين من فلسطين ومن شرقي الاردن وكلهم من احلاف المفتي ، لا يبقى الّا نحو الخمسين من مندوبي الاجانب . وفضلاً عن ذلك يجب ان نذكر ان الكثير من هؤلاء ايضاً لا يمثلون الّا شخصيتهم فحسب . وقد بلغ من قحط الرجال يوم افتتاح المؤتمر أن مريديه كانوا يفتشون في جميع انحاء اورشليم عن مسلمين اجانب ليجعلوهم مندوبين عن الانحاء الاسلامية المختلفة . من ذلك الحادث الجدير بالانتباه الذي ذكره ڤيلنسكي (Vilensky) عن مندوب « البلاغ » ،

وهو انه ذهب الى ادارة المؤتمر ليطلب تذكرة للحضور بصفة كونه صحافيًا . وشدّ ما كان انذهاله اذ رأى نفسه يترقى حالًا الى درجة مندوب ، ويُعلن باسمه ممثلًا القطر المصري.

« واذا تذكرنا اخيرًا ان نحو العشرين من المندوبين الاجانب تركوا المؤتمر بعد جلسته الافتتاحية ، نصل الى النتيجة التالية وهي : ان الرغبات التي نشرها المؤتمر كقاطعة البضائع والمحصولات اليهودية في البلدان الاسلامية ، وطرح قرار لجنة جمعية الامم في ما خصّ المبكى ، وتأليف جمعية تبشيرية من المرسلين غايتها شرح الاسلام ونشره ، لم يقرّها الّا نحو الثلاثين من الافراد اجتمعوا في جمعية صداقة لا صفة شاملة لها.

« وبعد ان اثار المؤتمر الاسلامي المناظرات الحامية ، ختم جلساته وسط الإعراض العام . فكان فشله تامًا . ولم يكن بالامكان ان يحدث غير ذلك اذا اعتبرنا التطوّر الحالي في العالم الاسلامي.»

النثر الجاهلي

جاء في مجلة المجمع العلمي العربي (كانون الثاني - شباط ١٩٣٢ ص : ١١٥) بعنوان « آراء وافكار : النثر الجاهلي» وبدون توقيع :

بعد ان سكنت الضوضاء التي احدثها الاستاذ طه حسين حول « الشعر الجاهلي » منذ بضع سنين قامت اليوم ضجة أخرى حول « النثر الجاهلي » احدثها تلميذه الدكتور زكي مبارك . فقد نشر في جريدة « البلاغ» المصرية منذ حين مقالات بعنوان « النثر الجاهلي » و « نشأة النثر الفني » حرك بها من اقلام كبار كتّاب الادب في مصر فانبروا لتأييده في بعض ما ذهب اليه ومعارضته في بعضه . وقد احببنا ان ننشر خلاصةً من هذا الموضوع الجم الفائدة الطريف الاثر في آدابنا العربية :

افتتح الدكتور مبارك مقاله بهذا السؤال :

« هل كان للعرب نثر فني في عصور الجاهلية ؟ وهل كانوا يفصحون عن اغراضهم بغير الشعر والخطب والامثال ؟ »

واجاب على ذلك مخطئًا اولًا من قال ان العرب قبل الاسلام لم يكن

لهم وجود ادبي ولا سياسي . وقائل هذا القول اما مسلم يرى ان الاسلام هو الذي خلق العرب ونقلهم من الظلمات الى النور ، او مؤرخ يشك في ما اثر عن العرب من الآثار الادبية . ومنهم من غلا فزعم ان عرب الجاهلية كانوا يعيشون عيشة اولية وهذه الحالة لا تسمح لهم بتولد النثر الفني فيهم . وصاحب هذا الرأي هو المسيو مرسيه وشايعه عليه الدكتور طه حسين . ويراد بالنثر الفني ما يلجأ اليه الرجل لاذاعة فكرة او دفع شبهة او ايضاح مشكلة . واستبعد الدكتور مبارك ان يكون للامم التي تجاور العرب كالفرس واليونان وغيرهم نثر فني قبل الميلاد باكثر من خمسة قرون ثم لا يكون للعرب نثر مثله بعد الميلاد بخمسة قرون

قال والدليل على خطأهم في ذلك ان القرآن اشار الى انه كانت لدى العرب كتب تدرس وكتابة تمارس بدليل آية « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » فالنثر الفني كان موجوداً ، وكان يُكتب ويتداول وعدم وصوله الينا لا يقتضي عدم وجوده . فهو قد ضاع لاسباب : اهمها شيوع الامية وقلة التدوين في الجاهلية ، وبعد نثرهم عن الحياة الاسلامية التي حدثت بنزول القرآن .

وبعد ان اثبت الدكتور مبارك وجود النثر الجاهلي على هذه الصورة عاد يبحث عن طريق يثبت به كيف كان نثرهم الفني ؟ وما هو أسلوبه ؟ وما هي الاتجاهات العقلية التي كان يرمي اليها كاتبو ذلك النثر في ذلك العصر ؟

فذهب الى ان النصوص المروية كأسجاع الكهان وعظات الخطباء وخطب الوفود لا تكفي لتعيين اساليب النثر الجاهلي . وهي على قلتها مما وُضع في العصر الأموي لاغراض دينية او سياسية او قومية اي بيان فضل العرب . وبعد ان افاض في اثبات رأيه هذا قال : والنتيجة اننا لا نستطيع ان نعطي النثر الفني الجاهلي لوناً نطمئن اليه ما دمنا لم نظفر بنصوص صحيحة منه ، اما ما روي من تلك النصوص فهو منحول مختلق . وهذا الشعر الجاهلي ارتابوا في صحة اكثره مع ان الشعر يسهل حفظه ويعتني بروايته فكيف بالنثر وهو ليس بهذه المثابة .

فاذا لم تكن النصوص المروية كافيـة في تعيين أسلوب النثر الفني فما هو الشيء الذي يثبت لنا ذلك ؟

اجاب الدكتور مبارك بانه القرآن . وبديهي ان رأيه هذا فيه مفاجأة حادّة يصعب التسليم بها على كثير من الباحثين المسلمين . ولذا تغيّر اتجاه هذا البحث الى المنزع الديني بعد ان كان ادبياً محضاً . فرد على الكاتب طائفة من ائمة كتاب مصر امثال الاساتذة محمد عبد المطلب (رحمه الله) ومحمد لطفي جمعة وفريد وجدي . ولا يخفى ان القرآن في اعتقاد المسلمين وحيٌ الهي ، فكيف يقول الدكتور انه نثر جاهلي .

وقد اجاب على هذا بان اتخاذه القرآن نموذجاً النثر الجاهلي لا يلزم منـه نفي ان يكون القرآن وحياً الهياً كما لا يلزم منه ان لا يكون كذلك . وكل ما يريد اثباته هو ان أسلوب النثر الفني الجاهلي إن فقـدنا نصوصه الاصلية الجاهلية فاننا نراه مصوّرًا وممثلًا في آيات القرآن التي ضربت على غرار ذلـك النثر وهي تعطينا صورةً صحيحةً عنه . لانها نزلت لهداية اولئـك الجاهليين وارشادهم . ولا يمكن ذلك الا بمخاطبتهم بما يفهمون من الكلام والاساليب وقد صرح القرآن بان الرسول لا يُرسل الا بلسان قومه ليبين لهم . ولا معنى لهذا الا ان القرآن مفرغ في اساليب العرب النثرية الفنية حتى يتيسر فهمهم لها فيسترشدوا بها . وكأن الدكتور يقول هذا كل ما أريده من قولي ان القرآن نموذج للنثر الفني الجاهلي . امـا كونه كلام الله لا كلام البشر او بالعكس فليس من مباحث الادب التي نحن في صددها . وقد تهكم الدكتور باستاذه طه حسين الذي قال ان القرآن « لا هو شعر ولا هو نثر وانما هو قرآن » . ثم ختم مقاله بقوله « والخلاصة ان القرآن نثر ، وانـه دليل على ان العرب كان عندهم نثر فني قبل الاسلام . فكان لهم بذلـك وجود ادبي متين قبل ان يتصلوا بالفرس واليونان . وفي هذا قضاء على اوهام من زعموا (ويريد بهم مرسيه وطه حسين) ان اول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الاصل ، وان العرب لم يكونوا يعرفون من قبل غير الخطب والاسجاع والامثال . »

ثم يقول الملخّص ان الدكتور مبارك عرض بعد ذلك « للزخرف » الانشائي ، فزعم ،

خلافاً لمرمبه وطه حسين ، ان الزخرف عنصر اصيل في اللغة العربية . والاول يراه دخيلاً فيها عن طريق الفرس ، والثاني عن طريق اليونان .

وشاهد زكي مبارك على ذلك القرآن ايضاً فهو مفعم بالزخرف والصنعة المحكمة التي تدل على ان المخاطبين بها وهم العرب يعرفون ما هي الكتابة الجيدة والأسلوب الجذاب . ثم اشار الدكتور الى ان البحث عن زخرف القرآن من اي جهة اتصل به هو بحث خطر : لان الرأي العام الاسلامي لا يسمح بدرس القرآن درساً تحليلياً يبين ما فيه من العناصر العربية الاصيلة والعناصر الدخيلة . . .

ولم يكتف الدكتور بما مرّ من امر « الزخرف » بل تعداه الى العلوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض والبديع ، فذهب الى انها اصيلة في لغة العرب بدليل وجودها في القرآن ولم تحدث في القرن الاول والثاني كما ظنه مؤرخو الآداب العربية . اذ لا يعقل ان يظهر كتاب كالقرآن بين قوم لم يفكروا في الفصاحة والعروض والنقد وطرائق التعبير ؛ فالقرآن ظهر في لغة تجاوزت طور الطفولة . وارباب المتكلمون بها لم يكونوا من الأمية بحيث وصفوا بل هم مستمدون — بثقافتهم الادبية — لفهم ما فيه من قواعد البلاغة واساليب البيان قال : بل انا اذهب ابعد من ذلك فأقرر ان الاسلام كان تاجاً لنهضة علمية وادبية وسياسية واخلاقية واجتماعية في الحدود التي كان يستطيعها العرب .

فالاسلام لا يتصور ان يكون نقل العرب من ظلمات الى نور ، بل من نور الى نور أتمّ لكن نورهم الاول لم تصل الينا صوره المختلفة . لاقى الاسلام من المعارضة آلاف المصاعب افيمكن الاقتناع بانه لم يُقل في معامع تلك المعارضة سوى ما نقل الينا من الخطب والرسائل ؟ اين السنة اليهود والعرب والأشراف من قريش ؟ واين ما قاله الصحابة في الرد على خصومهم ؟ وكل ما نقل الينا لا يصف حياة العرب العقلية فلا بد أن يكون هناك آثار ونصوص اندثرت ولو بقيت لفقهنا اسراراً جمة من حياة العرب العقلية وثقافتهم الادبية ومبلغ « الزخرف » الذي كانوا يزينون به لغتهم .

ثم اشار الدكتور الى ان ضياع آثار الجاهلية كان بالاسلام . وضياع آثار

الاسلام كان بحروب الردة حتى كاد القرآن نفسه يتلاشى لولا ما فعله ابو بكر من جمعه وتدوينه . فلعرب الجاهلية علوم ادبية كانوا يحذقونها قبل ان اتصلوا بالفرس والروم في العهد العباسي : فاذا استكثر المستشرقون ، ومن لفّ لفهم من أدبائنا ، على ابي الاسود الدئلي ان يكون هو اول من فكر في وضع علم النحو فانا استقلّ ان يكون هو المفكر الاول . بل اول من فكر هم عرب الجاهلية الذين عرفوا النحو وغيره من العلوم الادبية . وما قلته اتحمل تبعته والدفاع عنه وارجو ان يكون له اثر في فهم البيئة القديمة التي نزل فيها القرآن والتي سموها خطأ عصر الجهل وهي في رأيي عصر معرفة ونور .

ثم استشهد الدكتور بكلام لابن فارس يتنسم منه انه كان للعرب معرفة بالنحو والعروض واصول اللغة وقواعد الكتابة . وهو على الجملة يرى ان العلوم العربية كانت معروفة قبل الاسلام . وما حققه الدكتور مبارك في مقاليه هذين يمكن تلخيصه هكذا :

١ ــ كان لعرب الجاهلية نثر فني .

٢ ــ زخرف الفن الذي كان في نثرهم اصيل فيه لا دخيل .

٣ ــ آثار النثر الجاهلي ونصوصه لم يصل الينا منها الا النزر القليل المشكوك في صحته .

٤ ــ القرآن هو وحده الاثر العربي الموثوق به الذي صورلنا النثر الفني الجاهلي .

٥ ــ القرآن كما صور لنا نثر الجاهلية دلنا على انه كان لهم حياة عقلية وعلوم لغوية .

هذه تحقيقات الدكتور مبارك كما لخصها كاتب المجلة الدمشقية . وقد نشرناها لندل على استعداد بعض الاوساط الادبية في مصر لاثارة الضجات والرغبة في المفاجآت . والّا لما كان في هذا البحث الادبي ما يتطلب تلك الاضواء ، اللهمّ مسألة القرآن الذي اعتبره الدكتور اثرًا ادبيًا فحسب . على انه تنصّل من التبعة الدينية بافصاحه عن قصده من ذلك كما لخصته المجلة المذكورة . فلم يبقَ اذًا الّا البحث الادبي وليس فيه ما يدعو الى الاستغراب ، ولا ما يبرّر موقف الهجوم الشديد الذي يقفه الدكتور من الباحثين الذين تقدّموه . فاننا لا نعرف عالمًا مدققًا قال بانه لم يكن لعرب الجاهلية نثرٌ فنّي ، بل جمهور المحققين على القول انه لم يصلنا عن عرب الجاهلية ما يستحق الذكر من آثار النثر الفنّي . وهذا قول الدكتور في تحقيقه ايضًا .

ثم ان الكاتب يميّز بين « النثر الفني الجاهلي » والخطب والامثال . فان اراد بذلك تمييزاً كمّياً اي انه قد يكون من آثار النثر الجاهلي الفني غير الخطب والامثال التي وصلت الينا ، كان على حق . وان اراد بذلك تمييزاً كيفياً بمعنى ان النثر يختلف عن الخطب والامثال ، لكان قوله بحاجة الى تحفّظ شديد ، لان الخطب والامثال من نوع النثر ايضاً . وقد حدّد النثر الفني قائلاً : « هو ما يلجأ اليه الرجل لاذاعة فكرة او دفع شبهة او ايضاح مشكلة » وهو تحديد واسع يشمل الخطب والامثال ، بل يشمل اكثر من ذلك حتى انه يتناول جميع انواع التعبير . اما كون تلك الخطب والمواعظ وما اليها من اسجاع الكهان « لا تكفي لتعيين اساليب النثر الجاهلي » فصحيح . بيد انها تدلّ على وجود اساليبها هي في ذاك النثر . ولا يضير هذه الدلالة كون اكثر تلك النصوص موضوعة في العصر الاموي ، كما يرى الدكتور ، فان الواضعين انفسهم ، ان صحّ هذا الرأي ، جروا على امثلة كانت قديمة معروفة .

واما مسألة « الزخرف » فهي من متطلّبات الصناعة الفنية في كل ادب وفي كل لغة . ولا حاجة لان يكون هناك تأثير اجنبي في تلك اللغة ، كما بيّنه الدكتور . واذا تقرّر ان العرب الجاهليين عرفوا اساليب النثر الفني ، وهو ما نسميه « بالانشاء » في المقال التالي ، فقد رجح انهم استعملوا محسّنات هذه الاساليب التي تجسمها كلمة « الزخرف » والتي تظهر من عناصر « الانشاء » كما سنرى . ولكن لا ينتج من هذا انهم استخرجوا قواعد هذا « الزخرف » بما فيه من بديع معنوي ولفظي فاخذوا بتطبيقها في انشائهم كمن يطبّق اليوم مبادئ البيان وقواعد البلاغة . هذا ما يجنح اليه الدكتور ، او على الاقل ما ينسبه اليه ملخّص البحث اذ يجمله بقرّر « ان عرب الجاهلية عرفوا النحو والعلوم الادبية » . وهو تطرّف ظاهر ان اردنا به معرفة العرب لنظريات النحو ونظريات تلك العلوم . لان الجاهليين كانوا في عصر الادب الشفهي الذي قد يبلغ ارقى درجات الفنّ احياناً ، ولكنه يتقدّم ضرورةً عصر الادب الكتابي الذي يتفرّغ فيه العلماء لجمع الآثار القديمة وتجريد الامثلة العامّة منها ، واستخراج القواعد الادبية والعلمية للنثر والنظم . وهو عصر لم يتوفّق اليه العرب الّا بعد الاسلام . مما لا شكّ فيه ان العرب طبّقوا النحو والعروض واصول اللغة وقواعد الكتابة في منشآتهم الفكرية . ولكنهم لم يطبّقوا ذلك عن اقرار سابق لهذه القواعد ، اي لم يدرسوا هذه القواعد اولاً ليطبّقوها . بل جروا على فطرتهم ومبلغ تصوّرهم للفنّ في عصر لم تكن تستعمل فيه الكتابة لتدوين الآثار الفكرية . وكان شأنهم في ذلك شأن جميع ارباب الادب الشفهي من يونان وفرنجة وعبرانيين . فبهذا المعنى ، وبه وحده ، يمكن القول ان الجاهليين « كان لهم معرفة بالنحو والعروض واصول اللغة وقواعد الكتابة . »

هذا في ما خصّ النقطتين الثانية والخامسة من تحقيقات الكاتب . اما الثالثة والرابعة فواضحتان . وان كان للدكتور زكي مبارك من فضل في هذا البحث كلّه فهو اشارته الى ما يفيده القرآن في درس مسألة « النثر الجاهلي » .

وبعد فان لنا في الموضوع رأياً قد يكون في ذكره بعض الفائدة لمن يجرّب حلّ هذه النقطة الغامضة من ادبنا . وهاك نحن ننشره في المقال التالي .

ف . ا . ب .